الفصل الرابع

أزمة الثقافة العربية في ظل العولمة

رؤية سوسيولوجية للتحديات وآليات المواجهة

د / حنان سالم(*)

مقدمة

يشير مصطلح الثقافة إلي نمط التفكير وأسلوب الحياة ، ومن ثم فإن الثقافة نسبية تختلف باختلاف المجتمعات وباختلاف المراحل التاريخية .

وقد شهد العالم مع مطلع القرن الواحد والعشرين تطورات هائلة وغير مسبوقة في كافة المجالات ، ولا سيما المجالات العلمية والتكنولوجيا إلي الدرجة التي جعلت العالم يطلق عليها مسمى الثورة التكنولوجية .

وقد لعبت هذه الثورة الجديدة دوراً واضحاً في تغيير العالم المعاصر على كافة المستويات سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأيضاً ثقافياً ، فضلاً عن تغيير الكثير من قيم ومقولات الماضي ، وفرضت قيماً ومعايير جديدة .

والسؤال هل أثرت هذه الثورة بنفس الدرجة على كل دول العالم ؟

و إذا كانت هذه الثورة العلمية والتكنولوجية قد فرضت قيماً ومعايير جديدة ، أو تحاول فرض قيم ومعايير جديدة ، هل تعكس هذه القيم والمعايير ثقافة عالمية توفر العدل والمساواة، واحترام حقوق الإنسان لكل دول العالم ، أم إنها تعكس قيماً ثقافية لعناصر القوى المسيطرة على العالم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ؟

والإجابة لا تحتاج إلي تفكير ، لأن المشاهدات الواقعية تشير إلي مظاهر الغزو الثقافي الغربي ، ولا سيما النموذج الثقافي الأمريكي تحت مسمى العولمة .

و هذا لا يلغي وجود نماذج أخرى ربما تكون أقل ظهوراً ولكنها موجودة ، وقد تتمكن

(*) أستاذ مساعد علم الاجتماع ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

في وقت لاحق من الظهور والسيادة بصورة أكبر وأوضح ، وهذا يتوقف على ما لديها من أشياء ومعطيات يمكن أن تقدمها للعالم .

و تجدر الإشارة إلي أن خطورة النموذج الثقافي الأمريكي على دول العالم بصفة عامة والعالم العربي بصفة خاصة ، لا تكمن في فرض قيم ومعايير مغايرة للقيم والثقافة العربية ، بل تكمن في تغيير أنساق القيم العربية السائدة ، والتراث سواء الحضاري أو الديني ، والذي يُعد من وجهة النظر الأمريكية أداة لتكريس التخلف ومعبراً لاستخدام العنف .

و هذا ما يجعلنا نشير بل ونؤكد أن العقل العربي في ظل هذه الأوضاع العالمية الجديدة يواجه تحديات كثيرة . ولاشك أن أخطر المعارك وأصعبها ليست هي المعارك التي تستخدم فيها الآلة العسكرية المدمرة ، مهما كانت درجة الدمار التي تخلفها هذه المعارك ، إن أخطر المعارك هي ما تدور في عقول البشر ، وتستهدف القيم والوجدان .

وإذا جرت هذه المعركة ، وتم تبديل أو حتى إضعاف الأفكار والمبادئ والمفاهيم الراسخة نستطيع القول بأن النصر قد أكتمل لعناصر القوى المهيمنة .

ولكن من يريد الحفاظ على هويته يجب أن يحافظ أولاً على قدرته على مواجهة التحديات ، وقدرته على التفاعل وليس الخضوع ، وهذا لن يتأتى إلا بتطوير العقل البشري وصقله بالمعرفة التي تتيح لنا فرصة المحافظة على الموروث النافع ، وتنقية الوافد من الثقافات واختيار ما يلاءمنا .

وإذا كانت الأمة العربية تعايش أزمة ثقافية في ظل التحولات العالمية واختلال ميزان القوى الدولي ومن ثم اختلاف المصالح والأهداف، فيجب أن ندرك أن هذه الأزمة لها عوامل خارجية وعوامل داخلية، وهذه العوامل تشكل في مجملها تحديات يجب التصدي لها .

و من هنا تحاول هذه الورقة البحثية رصد أبعاد أزمة الثقافة العربية من خلال مناقشة مجموعة من المحاور الرئيسية تتمثل في الأتي :

أولاً : المقصود بأزمة الثقافة العربية .

ثانياً : العوامل الخارجية لأزمة الثقافة العربية (التحديات الخارجية) .

ثالثاً : العوامل الداخلية لأزمة الثقافة العربية (التحديات الداخلية) .

رابعاً : آليات مواجهة أزمة الثقافة العربية على المستويين الخارجي والداخلي .

أولاً: المقصود بأزمة الثقافة العربية:

قبل أن نبدأ الحديث عن أزمة الثقافة العربية ومظاهرها في ظل العولمة، لابد من الإشارة إلي معنى الثقافة بصفة عامة وخصائصها .

تعرف الثقافة بأنها "طريقة الحياة وطريقة التفكير ، ومن ثم فهي منتج اجتماعي واقتصادي وفكري ، يتم التوصل إليه بالجهد المقصود" .

(عبد العزيز حمودة،١٩٩٣ : ٢٤ ، فتحي عبد الفتاح،٢٠٠٣ :١٧ ، ت.س.اليوت، ٢٠٠١ : ٣٠)

ومن أهم خصائص الثقافة:

- **النسبية :** تختلف الثقافة باختلاف المجتمعات وباختلاف المراحل التاريخية .
- **التنوع :** يوجد في المجتمع الواحد تنوع في الثقافات أو ما يطلق عليه الثقافة الفرعية وهي تعكس قدراً من التمييز والخصوصية .
- **التغيير :** يطرأ على عناصر الثقافة بعض التغيير بفضل التطور والتقدم العلمي والتكنولوجي .
- **الانتقال :** يمكن لعناصر الثقافة أن تنتقل من إقليم إلي إقليم داخل المجتمع الواحد كما تنتقل كذلك من مجتمع إلي أخر .

وثقافة الفرد في أي مجتمع من المجتمعات لا تنفصل عن ثقافة الطبقة التي ينتمي إليها ، وثقافة الطبقة لا تنفصل عن ثقافة هذا المجتمع في فترة تاريخية معينة .

ولأن العالم يشهد من حولنا تغيرات عميقة أثرت بصورة واضحة على خصوصية المجتمعات في مختلف المجالات وخاصة في المجال الثقافي ، فلم تعد هناك ثقافة منعزلة عن باقي الثقافات الأخرى ، بل يشهد العالم من حولنا تنوع الثقافات وتداخلها مع بعضها البعض عبر مراحل تاريخية طويلة وليس الآن .

وفي تصوري أن تفاعل الثقافات يُعد أمراً هاماً وضروريًّا ، بل ويجب تفعيله ولكن بشروط من أهمها :

١ . أن تنطوي الثقافات المتفاعلة على درجة من التقارب تؤدي إلي الفهم .

٢ . أن يكون الاختلاف في الثقافات وسيلة للفت الانتباه إلي مضامين الثقافات المختلفة ومميزاتها .

٣ . أن يكون لكل ثقافة مزية خاصة تثير الإعجاب لدى الثقافات الأخرى .

وقد كانت ثقافة الأمة العربية ومنجزاتها المادية وتراثها الفكري والأدبي مصدراً لكل الحضارات الغربية التي نقلت عنا الكثير ، إلي أن أصبحنا نحن الناقلين أو المستهلكين للثقافة

الغربية وكانت هذه بداية أزمتنا الثقافية . وفي هذا الإطار يقول "سامي خشبة" "إن منجزات ومنتجات العالم العربي قد كانت من المكونات الرئيسية للغرب ، منذ بدايات القرون الوسطى حتى بدايات العصر الحديث ، باكتشافاتنا العلمية وإضافات مناهجنا الفكرية ، ونظمنا الإدارية ونماذج سلوكياتنا وآدابنا في عصور ازدهارنا ، ثم عن طريق اقتصادنا من خلال التجارة والتحكم في مصادر سلعها ومراكزها وطرقها .

ومن العقلانية والموضوعية أن نتبصر بدخول الفعاليات الغربية المناظرة في تكويننا منذ اكتشفنا علومهم ومناهجهم في البحث والتفكير ، وتكنولوجياتهم ونظمهم ، ومنذ دخلت اقتصادياتنا في إطار المنظومة الاقتصادية الغربية التي شملت وانتظمت العالم كله إنتاجاً وتوزيعاً واستهلاكاً ، ثم منذ اشتباكنا الضروري مع المنظومة المعلوماتية ـ المعرفية السياسية العالمية التي أقامها الغرب" . *(سامي خشبة ، ٢٠٠٤ : ٩)*

وعند هذا المستوى قد لا نجد أي مشكلة أو أزمة ، فقد نقل الغرب عنا نحن العرب في فترة تاريخية معينة فنوننا وآدابنا وعلومنا ، ونحن اليوم ننقل عنهم كل ذلك .

فما هو وجه الخطورة إذن الذي يشير إلي أبعاد أزمة ثقافية تعايشها الأمة العربية؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تقودنا إلي ضرورة أن نتبصر بحقيقة أساسية وهي "إن دخول الغرب في تكويننا الحديث كان في وقت واحد ذا تأثيرات متضاربة على أكثر من مستوى وفي أكثر من اتجاه ، وعبر أكثر من جيل أو عصر وأكثر من وسيلة أو أسلوب: بالحرب والتجارة وبالتسلل المالي وبالكشوف العلمية والمعرفية ، إضافة إلي تأثيره بالثقافة في صورة معارف ومعلومات ، أو في صورة وسائل نشر وتوصيل بأكثر من لغة وبأكثر من منهج ولأكثر من هدف" . *(سامي خشبة ، ٢٠٠٤ : ١٠)*

الأمر الذي يجعلنا لا نتحدث عن علاقات تفاعل متبادل ، بل علاقات تأثير أحادية الجانب ، وهناك فرق شاسع بين الحالتين .

فعلاقات التأثير تعني أن هناك طرفًا قويًا وطرفًا آخر ضعيفًا، وفي إطار حديثنا عن الثقافة فإن الأمة ذات الثقافة الأضعف قد تخضع في ظل ظروف معينة لتأثير ثقافة من الثقافات السائدة في فترة تاريخية معينة فتتأثر بها ولكنها لا تؤثر فيها .

أما علاقات التفاعل فتعني عملية التأثير والتأثر المتبادلين بين طرفين أو أكثر ، وقد لا تكون قوة العناصر المتفاعلة متساوية في موقف التفاعل ، ومن ثم فإن التأثير سوف يختلف ، بحيث يبدو واضحاً تأثير الطرف الأقوى ، ولكن هذا التأثير يتوقف دوره عند مستوى لفت الانتباه ، ولا يصل لدرجة الاستقطاب التام ، وهذا يتوقف على رغبة الطرف الأخر في

المقاومة ورفض الامتثال للطرف الأقوى ، فضلاً عن دوام الرغبة في المحافظة على الخصائص المميزة(*) لهذا الطرف .

و الوضع العربي الراهن للأسف الشديد يعايش حالة علاقات التأثير الأحادي والتي أدت إلي خلق أزمة الثقافة العربية والتي تتمثل في المحاولات الخارجية المنظمة التي تستهدف النيل من قوة وتماسك الأمة العربية ، ومحاولات تفتيت أواصر الصلة بين الدول العربية وبعضها البعض ونشر العداء فيما بينها ، فضلاً عن محاولات تغيير أنساق القيم السائدة والتراث الحضاري والديني والاستهانة بالمقدسات الدينية ودور العبادة .

ثانياً: العوامل الخارجية لأزمة الثقافة العربية (التحديات الخارجية)

تواجه الأمة العربية مجموعة من التحديات الخارجية تشكل في تفاعلها عوامل أساسية لأزمة الثقافة العربية وتتمثل فيما يأتي :

١ . هيمنة النموذج الثقافي الأمريكي

٢ . شيوع فكر الاستهلاك عالمياً

٣ . محاولات اختراق العقل العربي

و فيما يلي سوف نشير لكل عامل من هذه العوامل بشيىء من التفصيل :

١- هيمنة النموذج الثقافي الأمريكي:

واجهت الثقافة العربية مع نهاية القرن العشرين واستقبال القرن الواحد والعشرين تحديات كثيرة ، من أهمها الغزو الثقافي الغربي ، ومحاولات فرض نموذج قيمي وثقافي معين، هو النموذج الأمريكي وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ .

" لقد غيرت أحداث الحادي عشر من سبتمبر العالم كما فعل انهيار سور برلين العظيم، إلا أن أحداث سبتمبر أدت إلي ظهور العديد من التساؤلات حول الإدارة العالمية للعلاقات المختلفة بين المجتمعات ، والثقافات المتنوعة "

(Jean Tardif , ٢٠٠٢: ١٢-٤٨)

وقد برزت الثقافة الأمريكية التي غيرت الكثير من سمات الدول والشعوب والتي باتت تحمل العديد من سمات الثقافة الأمريكية التي تم تصديرها إلي العالم على نطاق لم يسبق له مثيل ، وتظهر الثقافة الأمريكية تقريباً في كل شئ بداية من المباني الإدارية العالية

(*) تُعد اللغة من أهم العناصر الثقافية والمحافظة عليها تعد شكلاً من أشكال المقاومة والصمود ، وقد استطاعت الشخصية المصرية عبر مراحل تاريخية مختلفة أن تحافظ على لغتها العربية لغة رسمية وأساسية للبلاد ، بالرغم من فترات الاستعمار الطويلة التي تعرضت لها ، وتعاقب العديد من الثقافات ذات التأثير القوي عليها مثل الثقافة الفرنسية والثقافة الإنجليزية .

Tall office builidings والموسيقى ، الأفلام ، وسائل الإتصال ، اللغة ، الأدب ، الرياضة ، الوجبات السريعة ، فضلاً عن الأفكار الأمريكية التي تنتشر بقوة **spreading inexorably** .

والملاحظ أن عملية نقل الثقافة الآن تختلف عن الماضي في إنها لم تعد أمراً عسيراً ، وخاصة في ظل تكنولوجيا اليوم التي تنقل الأفكار والثقافة في أي مكان وأي زاوية صغيرة في العالم .

لقد أصبحت الثقافة الأمريكية بفضل الانتشار السريع والمتواصل ثقافة مهيمنة وذات تأثير واضح في العالم كله ، إلي الدرجة التي تجعل المواطن الأمريكي حينما يسافر إلي أي دولة من دول العالم لا يشعر بأي شكل من أشكال الغربة أو الحنين **homesick** للوطن .

(See: Phuongly , ٢٠٠٤ : ١٢/٢٠ & Mark Rico , ٢٠٠٤ : ١٢/٢٦)

وقد أدرك الأمريكان أنه لكي يتم تسويق منتجات الثقافة الأمريكية من خلال العالم لابد من تحويلها إلي رغبات وأحلام . وتعد هذه المنتجات الثقافية من أدوات القوة والسيطرة الأمريكية على العالم ، بل وتفوق في بعض الأحيان الخطب السياسية للقيادات الأمريكية التي تعلن عن رغبتها الصريحة في وجود مركزية للقيم الثقافية ، والتي هي بالطبع قيم وثقافة أمريكية ، ولذلك فإن الخطر الأعظم الذي يواجه العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر ليس القوة العسكرية الأمريكية فحسب بل ما يحدث في المجال الثقافي .

(Jean . T, ٢٠٠٢: ٤٨)

وأمام هذه الهيمنة للثقافة الأمريكية يجب أن تطور المجتمعات لنفسها طرقًا متنوعة لضمان التبادل المتوازن بين المجتمعات والثقافات في ظل ظروف العالم المتغير .

٢- شيوع فكر الاستهلاك عالمياً:

تعلن ثقافة فكر الاستهلاك حرفياً أن معنى الحياة يوجد في الأشياء التي نملكها ، وبذلك "فأن نستهلك" يعنى أننا أحياء تماماً ، ولكي نبقي أحياء يجب أن نستهلك باستمرار .

(ليسلي سكلير ، ٢٠٠٤ : ٢٢٠)

ولاشك أن لهذا الفكر الاستهلاكي علاقة بطبيعة النظام العالمي الجديد ، وهذا ما أشار إليه "سكلير" بقوله " إن هدف النشاط الاقتصادي للأعضاء العاديين للنظام الرأسمالي العالمي هو توفير موارد الاستهلاك ، وهدف النشاط السياسي هو التأكيد على أن شروط الاستهلاك محافظ عليها " . ***(ليسلي سكلير ، ٢٠٠٤ : ٢٢٠)***

وإنه الآن أمر عادي أن يصنف المجتمع المعاصر شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً، فقيراً أو غنياً على أنه مجتمع استهلاكي . وعلى ما يبدو أنه ليس هناك شئ واحد محصن ضد التحول إلي سلعة أو التحول إلي تجارة ، وضد أن يشرى ويباع . *(سكلير ، ٢٠٠٤ : ٢٤٦)*

والجدير بالذكر أن الثقافة الأمريكية قد لعبت دوراً واضحاً في شيوع هذا الفكر الاستهلاكي(*) في كل أنحاء العالم المتقدم والنامي ، وأصبح ترويج القيم الاستهلاكية هدفاً تسعى أمريكا إلي تحقيقه ، واستخدمت لتحقيق هذا الهدف كافة الوسائل .

ولأننا أمام نقلة نوعية في الإستراتيجية الأمريكية على كافة المستويات ، وخاصة على المستويين العسكري والثقافي ، فنجدها مثلما تحاول إضفاء المشروعية على الصراع العسكري وحروبها بصفة خاصة ، ومحاولة تفسير تلك الحروب برغبتها في مقاومة الإرهاب ونشر الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان ، نجدها تروج للاستهلاك تحت دعوى المدنية ، ومواكبة التطور العالمي .

و على الكل أن يندمج في هذه المنظومة لأن الدول التي ترفض الاندماج تهمش ، وهذه هي الأسباب المعلنة ، ولكن لم يعد يخفي على أحد اليوم أن الأسباب الحقيقية هي حماية المصالح الأمريكية ، وضمان بسط هيمنتها المطلقة على العالم ولكن تحت مسمى " العولمة " .

وفي هذا الإطار يقول " فتحي عبدالفتاح " : " تعمل الولايات المتحدة وشركاؤها من دول الشمال الغني على توجيه الأجهزة الاقتصادية العالمية لخدمة مصالحها (البنك الدولي ـ صندوق التنمية ـ مؤسسة التجارة العالمية) وكاتب أمريكي مثل توماس فريد مان لا يرى في العولمة سوى سيادة الخط الأمريكي ، والثقافة الأمريكية ممثلة في موسيقى البوب ومحال الهامبورجر والتيك أواي ومادونا ومايكل جاكسون ، إلي درجة إنه في كتابه الأخير (شجرة الزيتون وسيارة ليزكس) عن العولمة والقطيع الإلكتروني يقسم العالم إلي نوعين ... عالم يستهلك الهامبورجر ويفتح محال ماكدونالدز ويسمع موسيقى البوب ويشرب الكوكا كولا ، وهذا هو العالم السعيد القادر على المشاركة مع القطيع الإلكتروني . . وعالم يرفض كل ذلك تحت دعوى الهوية والاستقلال وتعبيرات عفا عليها الزمن ، وهؤلاء هم

(*) يعد التسوق ثاني أهم نشاط لوقت الفراغ في الولايات المتحدة الأمريكية (بعد متابعة التليفزيون) والكثير مما يعرض في التليفزيون يروج للتسوق على كل حال ، وأصبح التسوق الأسلوب المهيمن على الحياة العامة المعاصرة. (سكلير ، ٢٠٠٤ : ٢٤٨) .

من قال عنهم أنهم متخلفون عن الركب ومحكوم عليهم بانزواء في ركن التاريخ ، أو ما أطلق عليه بالدول المارقة أو المتمردة **Rouge state** .

ولا يجب أن تخدعنا الكلمات ، فما يقوله فريد مان هو بوضوح استغلال للعولمة الكونية في خدمة المصالح الأمريكية تحت عباءة الثقافة والحضارة . لذا وجب علينا أن نفرق بين العولمة بمعناها الإيجابي في تداخل وترابط المصالح والمنافع بين شعوب الكون وتأكيد قيم العدالة والمساواة والديمقراطية وحقوق الإنسان بغض النظر عن العرق والجنس واللون ، وبين العولمة بتطبيقاتها الأمريكية " . ***(فتحي عبدالفتاح ، ٢٠٠٣ : ٧٠ـ٧١)***

ويبقى سؤال هل كل ما تعلنه الإدارة الأمريكية على العالم يجب أن يصدق ؟ والإجابة لا بل يجب أن يفند ويتم تحليله ، وهذا يتطلب عقلية واعية وإرادة على المقاومة واختيار الأصلح مما يتم ترويجه من قيم ومبادئ وأفكار ٠٠٠٠ وغير ذلك على العالم .

٣- محاولات إختراق العقل العربي:

تعد محاولات اختراق العقل العربي وإعادة تشكيله بما يتفق والمصالح الخارجية وخاصة الإسرائيلية ـ الأمريكية من أهم التحديات الخارجية التي تواجه أمتنا العربية ، وتشكل عاملاً أساسياً من عوامل أزمة الثقافة العربية .

ومن مظاهر اختراق العقل العربي ما يشير إليه "مصطفى نبيل" بقوله "يروج المستعربون داخل إسرائيل وفي كثير من الأوساط الغربية ادعاءات أن التراث العربي يدعو إلي استخدام العنف ، ويدللون على ذلك بآيات من القرآن الكريم تدعو للجهاد بعد أن يخرجوها من سياقها . ولم يقتصر الأمر على عدد من الأبحاث أو المقالات ، بل تحولت إلي سياسات وخطط وبرامج لتحقيق هذا الهدف وتنقية التراث مما يرونه خطراً ، وشاهدنا عمليات رصد خطب تلقى في المساجد في صلاة الجمعة ، وتحليل مضمونها ، وحصر التعليم الديني في البلاد الإسلامية وإبداء الرغبة في ضرورة تقليصه ، ويبدون خشيتهم من أن يصبح طلبة المعاهد الدينية مثل "طالبان" في أفغانستان التي قامت على طلبة المعاهد الدينية ، وتتناول الصحف الغربية العديد من الأبحاث حول برامج تعليم التاريخ واللغة والدين ويقترحون الخطط البديلة من أجل تنقيتها مما يحرض على العنف " .

(مصطفي نبيل،٢٠٠٣ : ٢٠)

ويقول أيضًا : "وتنتهج السياسة الأمريكية في المنطقة العربية والإسلامية سياسة تطويع

العديد من القوى الإقليمية والمحلية حتى تتواءم مع سياساتها وتتوافق مع المصالح والأهداف الأمريكية، كما تظل تعمل على التأثير على طريقة تعامل دول المنطقة مع التيارات الدينية كما تعمل على تقييد المناهج الدينية في مؤسساتها التعليمية" .

(مصطفى نبيل ، ٢١)

والجدير بالذكر أن محاولات الإدارة الأمريكية في اختراق العقول الإنسانية وإعادة تشكيلها بما يتوافق مع مصالحها وأهدافها ، فضلاً عن طمس معالم الهوية الوطنية ليست بالأحداث الجديدة ، أو عمليات طورتها خصيصاً في صراعها المعلن وغير المعلن مع العرب، فالتاريخ الأمريكي ينطوي على محاولات عديدة في هذا الشأن ، لعل أبرزها ما أحدثته أمريكا في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية .

" فلم تكتف الولايات المتحدة بالدمار المادي الشامل الذي لحق باليابان عقب إلقائها القنبلة الذرية في هيروشيما وناجازاكي وإنما استهدفت العقول والوجدان حتى يكتمل النصر . وكان لابد من القضاء على سر قوة اليابان وعلى روح اليابان التي دفعت الجندي الياباني إلي أن يقاتل بضراوة وعناد ، وهو على استعداد ليدفع حياته دفاعاً عن وطنه ويفضل الموت على قبول الهزيمة ، فلابد من القضاء على مجموعة القيم والمفاهيم التي جعلت اليابان تملك تلك القوة العسكرية الأسطورية .

وفور وصول " ماك آرثر " القائد العسكري الأمريكي إلي اليابان شرع في تشكيل لجنة من الخبراء والمتخصصين تبحث سر قوة اليابان ، وكيف يمكن نزع هذه القوة وكيف يمكن تفكيكها . وتغيير كل شئ قلوب اليابانيين وعقولهم وحتى أرواحهم وتصور أنه حقق بالفعل النجاح المنشود عندما أدخل موائد البلياردو وحفلات الرقص ولعبة البولينج وفرق الجاز" . *(مصطفي نبيل، ٢٧ :٢٠٠٣)*

وفي تصوري أن قوة الآلة العسكرية المدمرة لا تقف عاجزة إلا أمام آلة تدمير العقول ، لأن الأولى محددة بزمان ومكان وربما مكن حصر عدد الضحايا والمصابين من جراء استخدامها . أما آلة تدمير العقول فمن الصعب إدراك مداها وآثارها ، وهنا تكمن الخطورة، فضلاً عن تنوع المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في هذه الحرب التي إن جاز لي استخدام هذا التعبير ـ أسميها (حرب العقول) ومن أهم هذه المصادر التقدم التكنولوجي والإنجازات العلمية وثورة المعلومات ٠٠٠٠ و غير ذلك .

لقد أصبحت الثورة العلمية والتكنولوجية عاملاً مهماً إن لم يكن الأهم في إعادة صياغة وتشكيل العالم المعاصر على كافة المستويات ، وخاصة صياغة وتشكيل العقل البشري . الأمر الذي جعل البعض يتساءل هل هذه الثورة نقمة أو نعمة ، والحقيقة إنها سلاح ذو حدين . ولكن إذا كانت هناك دولة تمتلك الكثير من آليات التطور العلمي والتكنولوجي أليس من المنطقي في زمن المصالح والغاية التي تبرر الوسيلة أن توجه هذا التطور الهائل لخدمة أهدافها ومصالحها ؟

إن هذا ما يحث بالفعل الآن ويبدو ذلك واضحاً في الممارسات الأمريكية وخاصة خلال السنوات القليلة الماضية التي أعقبت أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، كما يقول بعض الباحثين :

" وبدلاً من أن تتمتع البشرية بالإنجازات الكبيرة للتقدم التقني الذي حققته أمريكا أظهرت أمريكا وجهها القبيح المتمثل في تساقط القنابل وإطلاق الصواريخ . ووضعت القيود على حركة المراسلين العسكريين خلال الحرب ضد الإرهاب ، واختفت الشفافية ، ولا يمكن أن يرى المواطن سوى ما تريده الإدارة أن يراه ، واختفى حق المتهم في محاكمة عادلة ، واختل حق الملكية المصان عندما صودرت الأموال دون حكم قضائي ، وتراجعت حرية السوق عندما وضعت القيود على حركة الأموال واختفى الحق المقرر في الحصول على المعلومات .

و لم تتمكن ثورة المعلومات بكل ما أنجزته من أن توفر المعلومات والحقائق لمن يطلبها، وعقب توارى الحرية اختفت الخصوصية وأصبح من حق الإدارة التنصت على محادثات الأفراد ومراقبة رسائلهم بلا أمر قضائي . وأصرت السياسة الأمريكية على معاملة أسرى الحرب خارج اتفاقيات جنيف ونقلتهم إلي قاعدة عسكرية أمريكية "جوانتانامو" متجاوزة سيادة دولة كوبا" . *(مصطفي نبيل ، ٢٠٠٣ : ٢٧٤)*

ومن أجل تغيير المفاهيم الراسخة في العقل والوجدان العربي وغير الغربي لعبت ثقافة الميديا في عام ٢٠٠٣ وكما يشير "سامي خشبة" دوراً خطيراً في تحويل جميع القضايا الإنسانية : السياسية والاجتماعية ، والمنجزات المعرفية والعلمية وتوابعها التقنية إلي قضايا ومنجزات دينية أو عرقية إثنية أو دينية عرقية في وقت واحد ، وهكذا جرى في الميديا العولمية تعميق وتأصيل معرفي يعتمد على تزوير علمي شديد المهارة لكي تتحول القضية الفلسطينية مثلاً إلي صراع بين اليهود والإسلام ، وهذا التحويل لجوهر الصراع العربي الإسرائيلي من

كونه صراعاً بين ظاهرة وحركة استعمارية ـ عرقية وبين حركة وطنية لشعب المستعمرة تحويله إلي صراع ديني عرقي ٠٠٠ يؤدي إلي تبرير قيام إسرائيل نفسها كدولة دينية عرقية تقوم على ادعاءات لا دليل عليها من العلم . *(سامي خشبة ، ٢٠٠٤ : ١٧٤ـ١٧٥)*

لقد أصبحت صورة العربي في الإعلام الغربي صورة مشوهة تحمل صفات العنف والجهل وهذه الصورة ليست وليدة الأعوام أو العقود القليلة الماضية ، وإنما ترد إلي النصف الثاني من القرن العشرين ، ولكن تم ترسيخها في العقول والإعلام الغربي خلال الفترة القليلة الماضية ، وعلى وجه التحديد بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ .

فقد صار العربي والمسلم تحديداً رمزاً للدم والإرهاب والدمار ، وهذه افتراءات ومبالغات لا أساس لها من الصحة ، وتعكس ذلك الحرب الشرسة التي يعلنها اليهود وخاصة في أمريكا على الإسلام والمسلمين باعتبار الإسلام العقبة أمام طموحاتهم بعد إنهيار الاتحاد السوفيتي .

وتتم هذه التجاوزات وتلك الاتهامات على مسمع ومرأى من العالم أجمع ، والمعارض لهذه الافتراءات يقف مكتوف الأيدي (عدا بعض المحاولات) وحالة العجز هذه لا ترد إلي غطرسة القوة الأمريكية فحسب ، بل ترد أيضاً إلي حالة الضعف والتفكك الداخلي الذي أصاب العديد من الدول العربية .

وفي تصوري أنه لا يستطيع أحد أن يقول إن هناك دولة عربية ترضى أن تصاب دولة عربية شقيقة بأذى . ولكن التاريخ لن يرحم هذه الأمة من تسجيل لمواقف تشير إلي تآمر دولة عربية أو عدة دول ضد دولة أخرى ، ولأن أحداث الحاضر لا تدخل التاريخ إلا بعد فترة زمنية ، فربما لا نقرأ نحن ذلك الآن، بالرغم من إدراكنا له ، ولكن سوف تقرؤه الأجيال القادمة . (لم تكن أمريكا قادرة على غزو العراق ما لم تكن لها قواعد عسكرية في كل من الكويت وقطر ، فضلاً عن العلاقات المشبوهة بين أمريكا وبعض الأطراف العربية، قد لا نستطيع أن نحدد شكلها ومداها أو يكون لدينا دليل مادي ملموس عليها ، وإنما نجني ثمارها في ضعف ووهن الأمة العربية وانشطارها من الداخل) .

وهذا يقودنا إلي ضرورة التعرف على العوامل الداخلية لأزمة الثقافة العربية والتي تشكل تحديات يجب تجاوزها بأسرع ما يمكن لكي نواكب التطورات الخارجية واسعة النطاق، والتي لا تعطي أدنى اعتبار للضعيف والعاجز ٠٠٠٠ وغير ذلك .

ثالثاً: العوامل الداخلية لأزمة الثقافة العربية (التحديات الداخلية)

يشهد تاريخ الأمة العربية اهتمامها الدائم بالبحث عن الأسباب الخارجية لأزماتها ومشاكلها مع تجاهل الأسباب الداخلية كالفرقة والمنازعات وتبادل الاتهامات ، مما أدى إلي حالة الضعف والعجز التي صرنا عليها ونظهر بها أمام العالم ، ولا يستفيد منها سوى القوى الدولية الرامية إلي الهيمنة وإحكام قبضتها على العالم .

وإذا كنا نطالب بعهد جديد على المستوى الدولي يسوده التفاهم والحوار بين الحضارات بعيداً عن أشكال التزمت ، وكافة أنواع الصراع ، فلابد من مراجعة الذات أولاً بفكر جديد ومنهج علمي كي يتسنى لنا تدعيم جوانب القوة في ثقافتنا وعلاج جوانب الخلل والضعف .

وقبل أن نشير إلي عوامل أزمة الثقافة العربية أو مجموعة التحديات الداخلية أود الإشارة سريعاً لنتائج أحد التقارير الهامة التي أعتقد أنها لا تنفصل عن العوامل الداخلية لأزمة الثقافة بل تكملها وتتفاعل معها .

أشارت نتائج تقرير "التنمية الإنسانية العربية" وهو ثمرة تعاون بين برنامج الأمم المتحدة للتنمية وبرنامج التنمية الإقليمي والجهات المختصة في جامعة الدول العربية ، وشارك فيه عدد من المفكرين والعلماء والمتخصصين المصريين والعرب الذين عكفوا على ذلك العمل الكبير منذ يناير ٢٠٠١ وعلى مدى ١٨ شهراً إلي مجموعة من الحقائق :

- **أولاً** : إن مجموع الإنتاج الكلي للدول العربية (٢٢ دولة) ٢٨٠مليون إنسان وصل إلي ٥٣١ مليار دولار بما في ذلك البترول، بينما وصل الناتج الأسباني في العام نفسه ٥٩٥ مليار دولار أي أن أسبانيا وحدها (٤٠ مليون نسمة) تنتج أكثر من العالم العربي كله وتزيد حوالي ٦٤ مليار دولار .
- **ثانياً** : وصل عدد العاطلين عن العمل في العالم العربي ومن هم في سن الإنتاج ٣٠ مليون شخص أي بنسبة تزيد على ١٥٪ وهي من أعلى النسب في العالم .
- **ثالثاً** : انخفضت إنتاجية الإنسان العربي على مدى الأربعين عاماً الماضية (١٩٦٠ـ ٢٠٠٠) بمعدل سنوي يقدر بـ٢ر٠٪ بينما كانت الإنتاجية تزيد في مناطق أخرى في العالم ، حتى إن معدل التنمية الكورية الذي كان أقل من مثيله العربي في السبعينات أصبح الآن ضعف الإنتاجية العربية .
- **رابعاً** : نسبة استثمار طاقات المرآة العربية ومساهماتها السياسية والاجتماعية هي الأقل

في العالم كله ٥ر٣٪ في مقابل ١٦٪ في إفريقيا السوداء وأوربا ٤٠٪ ، ومازلنا رغم ذلك نناقش قضايا الحجاب والنقاب وتحريم عمل المرأة وتجريمها كشيطانة عليها التستر والاختفاء عن العين .

- **خامساً** : الإنفاق على الأبحاث والدراسات العلمية في العالم العربي هو الأقل في العالم ١٤ر٠٪ في مقابل متوسط عالمي ٣٪ كما أن الإنفاق على الصحة ٧ر٣٪ بينما معدل الإنفاق العالمي ١١٪ .
- **سادساً** : هناك أعلي نسبة أمية في العالم العربي يمثلون ٦٥ مليون بنسبة ٣٥٪ للرجال و٥٠٪ للنساء ، كما أن العالم العربي هو الأقل في استخدام أجهزة الاتصال والمعلومات الحديثة (الكمبيوتر والإنترنت) .
- **سابعاً** : إن الشعوب العربية هي الأقل في العالم كله تمتعاً بالحريات الأساسية وتحتل مراتب متأخرة في قضايا مثل الحقوق المدنية والحقوق السياسية وفي الإعلام المستقل .

(فتحي عبدالفتاح ، ٢٠٠٣ : ١٦٥ـ١٧٠)

وإضافة إلي نتائج هذا التقرير توجد مجموعة من العوامل الداخلية تشكل تحدياً أساسياً أمام المحافظة على ثقافتنا العربية على المستويين الداخلي والخارجي وهي :

١ . الفجوة بين المثقفين والجماهير

٢ . تراجع سلوك القراءة

٣ . غياب المنهج العلمي في حياتنا

٤ . ضعف وسائل الإعلام وغياب الشفافية

وفيما يلي سوف نناقش كل عامل من هذه العوامل بشئ من التفصيل :

(١) الفجوة بين المثقفين والجماهير :

" إن البحث الاجتماعي عن الثقافة في مجتمع حر يجب أن يبدأ بحياة أولئك الذين يخلقون الثقافة ، أي المثقفين ومكانهم في المجتمع ككل " (اليوت ، ٢٠٠١ : ٥٢) لأن أصوات الأدباء والفنانين تشكل مرآة عاكسة لما يحدث في المجتمع ، كما إنهم يشكلون وسائط جيدة لنقل الأفكار داخل المجتمع وخارجه .

(Gabrielle Banks, ٢٠٠٣ : ١٢ـ٣٩)

ويسبق المثقف زمنه ويمهد الطريق للمستقبل ، وهـذا يعـني أن مـستقبلنا يتوقـف علـى قدراتنا على تطوير حياتنا كي نتوافق مع ما استجد على العالم من تغيرات حتى لا نتعـرض لخطر عدم مسايرتنا للعصر . (مصطفي نبيل ، ٢٠٠٣ : ٣٧)

والسؤال هل يتيح المجتمع العربي للمثقف الفرصة لكي يقوم بأداء الدور المتوقع منه ؟

والإجابة " لا " لأن التوتر الذي تشهده الأمة العربية ينعكس على عقـل ووعـي المثقـف العربي الذي أصبح يعايش أزمة هو الأخر .

" ولا يمكن فصل أزمة الثقافة عن أزمة المثقفين ، فكلاهما وجها عملـة واحـدة وأزمـة الثقافة ترتبط بوضع المثقف في المجتمع ومدى نجاح المجتمع في استيعاب جهد مفكريه .

ولم يعد الكاتب أو الفنان قادراً على إشباع مطالب الحياة من فنه أو إنتاجـه ، والأزمـة في أحد جوانبها أزمة اقتصادية ، وعندما لا يحقق الدخل الحد الأدنى إذا أعطـى جهـده كلـه لفنه وفكره ، وخاصة ونحن أمام ارتفاع كلفة العمل الثقافي وعجز الفرد العـادي عـن تحمـل أعبائه فكيف يتأتى لمن تثقله مطالب الحياة أن يفكـر وأن يبـدع ؟ إنـه يـصبح أسـيراً لإشـباع احتياجاته ، ويبعد عن محراب فكره وإبداعه ، وكثيراً ما تؤدي هذه الحالة إلي تجنـب تنـاول أمهات المسائل والانشغال بالرائج من الأمور مهما كانـت أهميتـه ، ويغلـب علـى أعمالـه ممالأة الرأي العام بصرف النظر عن علاقته بما يكتب ، ويندر في ظـل هـذه الظـروف وجـود الكاتب الذي يرى في إنتاجه رسالة مقدسة عليه أن يؤديها متحدياً ظروفه الاقتصادية " .
(مصطفي نبيل ، ٢٠٠٣ : ٤١)

" ومن جانب أخر يعاني المثقفون في معظم البلاد النامية من دورهم الهامشي ، مما يـثير لديهم صور السخط والكبت والـشعور بالإحبـاط عنـدما لا يـستفيد المجتمـع مـن ثقـافتهم وخبرتهم ، ولا يجعلهم جزءاً عضوياً من نسيجه ، لذا يحكم على النظام الاجتمـاعي بمـدى قدرته على الاستفادة من المثقفين والخبراء ومدى نجاحه في جعلهم جزءاً حيويـاً منـه . كمـا يحكم على أي مجتمع بحجم مؤسسات البحـث والـتفكير الفاعلـة داخلـه الـتي يـتمكن مـن خلالها المثقفون مـن المـساهمة بـالحلول المدروسـة للعديـد مـن المـشاكل علـى أن يتجـاوب المجتمع مع هذه الحلول " . *(مصطفى نبيل ، ٢٠٠٣ : ٤٢)*

وهكذا يتضح لنا أن ظروف المجتمع هي التي تقـف عقبـة أمـام أداء المثقـف لـدوره ممـا

يؤدي إلي وجود فجوة بين المثقفين والجماهير ، من خلال قصر فهم أفكار المثقفين على بعضهم البعض ، والبعد عن الواقع وتجاهل مفرداته ، وأحياناً إدراك الواقع ولكن بصورة مجتزئة بعيدة عن الرؤية الشاملة التي تضم تفاصيل الواقع ، وللأسف الشديد أحياناً يتم تزييف هذا الواقع .

(٢) تراجع سلوك القراءة:

تواجه الأمة العربية ظاهرة سلبية نبعت من الداخل وأثرت على مستوى الثقافة بصفة عامة ، وهي تراجع سلوك القراءة لدى العديد وخاصة قطاع الشباب من الجيل الحديث ، والذي ثبتت لديه فكرة خاطئة مؤداها أن القراءة سلوك قديم تقليدي ، تضعف أهميته أمام شاشات التليفزيون وأجهزة الكمبيوتر ٠٠٠٠ وغير ذلك من وسائل الاتصال الحديث .

وهناك تفسير أخر لتراجع سلوك القراءة وبصفة خاصة عند المصريين، يتمثل في ارتفاع ثمن الكتاب المرتبط بارتفاع تكلفة الكتاب من ورق ومعدات طباعة وأصبح ارتفاع أسعار الكتب عقبة رئيسية أمام مستهلكي الثقافة .

ويعمق تراجع سلوك القراءة الفجوة بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة ، تلك الدول الأخيرة التي مازالت تحرص على تأصيل ثقافة القراءة ، واحترام الكتاب وتوفيره بالرغم من الثورة التكنولوجية الهائلة التي تشهدها تلك الدول .

ويشير "مصطفى نبيل" إلي أن أحد أبعاد أزمة نقص القراءة ترد إلي غياب الكتاب الجيد ، فمعظم الكتب التي تصدر هذه الأيام ، إما اجترار الكلام السابق ، أو عبارة عن تجميع مقالات متفرقة ، أو محاضرات سبق إلقاؤها ، والقليل النادر هو الذي عكف عليه صاحبه يجمع مادته ، ولديه رسالة يسعى إلي تقديمها للقارئ ولا يوجد نقد يلاحقهم ، ومعايير تردعهم ويستمرون في تسويد الصفحات إما استغلالاً لنفوذهم أو فلوسهم .
(مصطفى نبيل ، ٢٠٠٣ : ٣١١)

وفي الوقت الذي نشهد فيه تراجع سلوك القراءة فيما يتعلق بالكتب العلمية والمؤلفات الأدبية ، نلاحظ إقبال العديد من الشباب على الكتب الخاصة بالكمبيوتر والجنس والخرافات والرجيم ، وقد ساهم في شيوع تلك الأنماط من القراءة وجود مواقع الإنترنت التي خصصت لهذه الموضوعات على وجه التحديد ، ويزيد عدد المترددين عليها بصفة مستمرة لاحتوائها على عناصر الجذب والانبهار .

(٣) غياب المنهج العلمي عن حياتنا:

من عوامل أزمة الثقافة العربية غياب المنهج العلمي في رصد وتناول مشكلاتنا الاجتماعية بصفة عامة ، بالرغم من إننا في أشد الحاجة ونحن في القرن الواحد والعشرين إلي تبني المنهج العلمي كأداة أساسية للوصول لحلول لقضايانا ومشكلاتنا ، وخاصة القضايا والمشكلات التي مازالت محل جدل ونقاش ، وأحياناً صراع بين مقدمي الحلول من المتخصصين ، مما يؤدي إلي اتساع نطاق الخصومات والانقسامات الفكرية ، والتحول عن القضايا الأساسية، والتركيز على الصراع وتصفية الخلافات بصورة غير شريفة تتفق مع مناخ الخصومة في بعض الأحيان مثل اللجوء للوقيعة والتشويه وأحياناً العنف .

إننا مطالبون بتوحيد صفوفنا العلمية والفكرية وأن نتحلى بقدر كبير من الموضوعية حتى لا ندع مجالاً للانطباعات والأهواء الشخصية في مناقشة المشكلات والقضايا الرئيسية كي يتسنى لنا توحيد صفوف أعضاء الجبهة الداخلية من أجل مواجهة التحديات الخارجية، والصمود أمام المنافسة العالمية، لأنه لا قيمة لأي إنجازات داخلية ما لم تكن لديها القدرة على المنافسة خارجياً .

وفي هذا الإطار يقول "عبد المنعم سعيد" : "لقد أصبحت إنجازات الأمم تقاس بمدى ما تقدمه للاقتصاد العالمي من سلع وخدمات ولها القدرة على كسب المنافسة في الأسواق، إننا أمام معايير مختلفة للإنجاز عما كان الأمر سائداً في السابق ـ فلم تعد القضية وجود زيادة في الكهرباء مهما كان قدرها ، ولكن القضية هي كيف تستخدم الكهرباء وفي أي نوعية من الصناعات القادرة على المنافسة ، كما أن الموضوع ليس زيادة عدد التلاميذ في المدارس وإنما ما هي نوعية الخريج الذي ينتجه النظام التعليمي كله ، وهل المحاسب المصري أفضل حالاً من المحاسب التركي أو الهندي مثلاً الذي يقوم حالياً بعمل الحسابات للشركات الدولية متعددة النشاط والجنسية من موقعه في الهند ، وعلى شاشة حاسبه الآلي ، كما أن المسألة ليست في عدد المعاهد والمراكز التي تضع عليها لافتة التكنولوجيا المتقدمة ، وإنما ماذا تقدمه وتضيفه حقاً ليس فقط للصناعات في بلادنا وإنما لصناعات العالم أجمع" .

(عبد المنعم سعيد ، ٢٠٠٤ : ٣٩٢)

وهكذا فإن موقعنا في العالم الجديد لا يرتبط بالتطورات الكمية في أي مجال من

المجالات ، وإنما يرتبط بالتطورات الكيفية ، التي تتحقق بالاعتماد على أسس ومسلمات المنهج العلمي ، التي تعتمد عليها كل الدول الرامية إلي التطور والتقدم والدخول في حلقة المنافسة العالمية .

(٤) ضعف وسائل الإعلام وغياب الشفافية:

يلعب الإعلام العربي دوراً واضحاً في التلاعب بالعقول ، والبعد عن التحليل الموضوعي للقضايا والمشكلات الداخلية ، وكثيراً ما تخرج التحليلات الإعلامية جوفاء وتحمل في كثير من الأحيان انطباعات شخصية أو تعكس رؤى وأفكار النظام السياسي ، مما يؤدى إلي تشويه الحقائق وتزييف الوعي بالبعد عن الأفكار الجادة التي تعكس حقيقة الواقع .

وينطوي خطابنا الإعلامي على المبالغة والصوت العالي منذ منتصف القرن العشرين وحتى وقتنا الراهن ، وقد أخطأنا ونخطئ دائماً حينما كنا ومازلنا نتحدث عن شعارات زائفة ومكاسب وهمية وفقاً لمعايير الجودة العالمية في كل شئ .

وبغياب الشفافية عن إعلامنا العربي وعدم القدرة على المنافسة بنفس الأسلوب تركنا الفرصة للإعلام الغربي يصورنا كيف يشاء . واليوم ونحن نتحدث عن صورتنا كعرب في الإعلام الغربي يجب ألا نغفل التاريخ، بل من المنطقي أن نضع أيدينا على سلبياتنا وأخطائنا التي ساهمت في رسم صورتنا المشوهة عند الآخرين وجعلت مجرد ذكر اسم العربي والعربي المسلم على وجه التحديد يعني الإرهابي والمتطرف والعدواني٠٠٠ وغير ذلك .

ومما لا شك فيه أننا ساهمنا في رسم هذه الصورة بغياب إعلامنا القوي الواعي الحر الذي نستطيع أن نقدم من خلاله أنفسنا بالطريقة الصحيحة وبصورة منطقية يقبلها الأخر ويتعاطف معها ، كما فعل اليهود، فبعد أن كانت شخصية اليهودي تعني المرابي والجشع ، وهذا ما عبر عنه حتى شكسبير في رائعته الشهيرة "تاجر البندقية" حينما عرض شخصية "شايلوك" إلا أن هذه الصورة لم يعد لها وجود ، لقد تغيرت بفضل الإعلام القوى المؤثر، والأكثر من ذلك أن شخصية اليهودي تشير الآن إلي المواطن المغلوب على أمره المشرد والمضطهد والذي يبحث عن وطن آمن ينسى فيه ذكريات الهول كوست وعذابات اليهود الماضية ومن ثم فلابد من قيام دولة إسرائيل وحمايتها .

ألم نستطع حتى الآن أن ندرك الفرق بين إعلامنا العاجز وإعلام الآخر الذي جعل من

اليهود شهداء ؟

رابعاً: آليات مواجهة أزمة الثقافة العربية:

تؤثر العولمة على كافة جوانب الحياة إلا أن البعض مثل "**Jeremy Seabrook**" يرى أن العولمة هي إعلان الحرب **A Declaration of war** على كل الثقافات ، وفي الحروب الثقافية لا يوجد استثناء لأفراد أو مجتمعات .

(Jeremy Seabrook , ٢٠٠٤ : ١٢-٢١)

ونحن نواجه الآن تدفق غير منظم لتنوع ثقافي عالمي ، ومن الصعب أن نواجه هذا التدفق الثقافي بالأساليب التقليدية ، وخاصة أن هناك وسائل اتصال تكنولوجية حديثة تجاوزت المسافات الجغرافية والاجتماعية .

ويجب أن تكون الشعوب قادرة على مواجهة هذه التحديات ، كما لا يجب إغفال فقر التوقعات الصحيحة للأحداث الجارية على المستوى العالمي لأن هذا يشكل خطأ كبيراً ، ويجب تحديداً إمكانية التعامل مع هذا التنوع العالمي .

(See: Golding and Harris , ١٩٩٧: ٧ & Murdock, ١٩٩٤ : ٣-٤)

وفي مجتمعاتنا العربية على وجه التحديد يجب أن ندرك أن مواجهة أزمة الثقافة لا تنفصل عن مواجهة الأزمات الأخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لأن تقدم الثقافة يجب أن يشمل الجانبين المادي والمعنوي .

ونحن في أشد الحاجة لصياغة نموذج ثقافي جديد يبعُد تماماً عن ثقافة الاستسلام ليرتفع بنا إلي ثقافة المواجهة ، وهي الثقافة التي تجعل الفرد ينظر إلي المستقبل ولا ينظر تحت قدميه، يفكر من أجل الغد وليس من أجل اللحظة الراهنة، ويشعر أنه كجزء ذاتي لا قيمة له ولا فائدة بعيداً عن الكل العام .

وإذا كنا نحاول إحياء الثقافة المحلية لأن في ذلك استمرارها فهذا لن يتأتى بالتمسك بالقديم وحده ومحاولة فرضه في ظروف حديثة متغيرة ، بل يتأتى بانتقاء عناصر ثقافية من الجذور ومحاولة ربطها وتفعيلها بالواقع الجديد، وتمكين الثقافة العربية من الاختلاط بحرية مع الثقافات الأخرى المغايرة مع بقائها متميزة .

وهذا يقودنا إلي ضرورة أن نبني تفكيرنا على أساس من المنطق والعقلانية لا على العاطفة والانفعال . (لأن العاطفة والانفعال هما دائماً حالتان عارضتان) .

ومن هنا تطرح هذه الورقة البحثية مجموعة من الآليات لمواجهة أزمة الثقافة العربية على النحو الأتي :

١ . تطبيق الديمقراطية .

٢ . تطوير العقل العربي .

٣ . غرس الروح العلمية .

٤ . تطوير الإعلام .

(١) تطبيق الديمقراطية :

" الديمقراطية ليست وصفة سحرية ، تحل المشكلات وتتخطى العقبات تلقائياً ، بل هي رحلة طويلة شاقة . فلا تكتمل الديمقراطية مع الأمية ، ولا ديمقراطية بدون مؤسسات مستقلة ، ولا ديمقراطية بدون نظام تعليمي يسلح أبناء المجتمع بالقدرة على اقتسام الثروة والسلطة ، ويجعل المنافسة عادلة بين أبناء المجتمع الواحد .

وما قيمة الديمقراطية التي لا تزود الشعب بقسط وافر من الثقافة العامة ، ولا تسلحه بالوعي والقدرة على التمييز في شئون بلاده . وأهم ما تقدمه الديمقراطية إمكان بناء المجتمع على أساس المساواة والفرص المتكافئة ، وعلى أساس الحوار الحر ، فحرية الرأي وفتح الباب لتعدد الفكر الحر هو المخرج وهو صمام الأمان " . *(مصطفي نبيل ، ٢٠٠٣ : ١٤٨-١٤٩)*

وتجدر الإشارة إلي أن اختلال الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية داخلياً لا يقود إلي حدة التفاوتات الطبقية فحسب وما يمكن أن ينتج عن ذلك من مشكلات اجتماعية ، بل يقود إلي التفاوتات الثقافية أيضاً ، مما يؤدي إلي غياب الإتفاق على شيء عام نظراً لاختلاف المصالح والأهداف ، وأهم من ذلك طبيعة الاحتياجات بكل طبقة .

الأمر الذي يؤدي إلي ظهور ثقافات فرعية متنوعة ليست متجانسة فحسب ، بل قد تكون متصارعة مما يؤدي إلي حدوث اضطرابات داخلية تضعف من قدرة المجتمع على الاستقرار داخلياً وعلى المقاومة الخارجية .

إن الأفراد الذين يعيشون على هامش المجتمع بسبب أميتهم وفقرهم واحتلالهم أدنى درجات السلم الاجتماعي لا يمكن أن نتوقع منهم القيام بدور في بناء المجتمع وتنميته ، أو أنهم يتعاملون عن طيب خاطر مع المجتمع ببذل الجهد والمثابرة والعمل الجاد ، لأنهم يشعرون أن نفس هذا المجتمع قد حرمهم من حقهم في الحياة بمستوى آدمى في الوقت الذي

ينعم فيه آخرون بكل متع الحياة ومظاهر الترف .

ومن هنا تأتي أهمية طرح الديمقراطية كآلية هامة لتحقيق التوازن والسلام والأمن الداخلي على كافة المستويات ، بهدف الوصول للتوازن الخارجي على كافة المستويات أيضاً .

(٢) تطوير العقل العربي:

لكي يكون لنا مكان ودور في العالم الجديد لابد من إعادة صياغة وتشكيل بنية العقل العربي بالعلم والمعرفة بما يتلاءم ومتغيرات العصر الحديث.

ويجب التحرر من صور التفكير النمطية التي تمجد الذات دائماً ، وتلقي باللوم والتبعات على الأخر ، وإذا كان العالم أصبح مفتوحاً أمام الجميع ، والبقاء سوف يكون للأصلح علمياً وفكرياً فلابد من توافر شروط التفاعل الجيد ، ولا أقول المنافسة لأننا لم نصل بعد لهذه الدرجة ، (ولكن من الممكن الوصول إليها) ولابد أن نضمن أولاً شروط التفاعل ، وهذا يتطلب منا بقدر محاولات التمسك بثقافتنا وتراثنا في عصر الثقافات المركبة والمصالح أن نحاول تنقية تراثنا من القوالب الفكرية الجامدة ، لأن العالم من حولنا يسير وفقاً لآليات الاستبعاد والانتقاء وليس التراجع والانسحاب .

وفي هذا الإطار يجب أن ندرك أن أمريكا بالرغم من هيمنتها الواضحة على العالم اقتصادياً وعسكرياً وثقافياً ، وبالرغم أيضاً من عدائها السافر والمعلن للعرب والمسلمين إلا إنها ليست وحدها هي العدو أو المارد ، الذي خرج ليفتك بالعرب ، ويشوه من خلال إعلامه صورة العرب ، لأن هناك دولاً عربية وقنوات عربية تشوه صورة العرب. وإذا كنا نحن نطالب أمريكا بالعدالة وألا تكون متحيزة لجانب قطاع بعينه (إسرائيل) على حساب قطاع آخر (العرب) ، فيجب أن نحقق نحن العدالة مع أنفسنا ، بإخراج عقولنا من سجن الأساطير والوهم الذي يستصعب عمليات البحث والتحليل التي تقودنا إلي نقد ذاتنا ، ونركن سريعاً إلي المبررات الجاهزة دون إعمال عقل ، والتي غالباً ما تعبر عن ضعف وعدم قدرة على مواجهة الآخر بنفس سلاحه ، وليس الخداع والقوة العسكرية وحدهما أسباب الفوز ، فالمنطق والعقل لهما دور أساسي إن لم يكن في النصر المباشر ، فعلى الأقل يحدثان نوعاً من التغيير الذي قد يكون بداية حقيقية للنصر فيما بعد .

وهذا ما تدركه الكثير من الدول الأجنبية ، وتسعى إلي تسليح نفسها بالعلم والمعرفة والاستفادة منهما في تحقيق إنجازات كيفية قادرة على المنافسة والصمود أمام التحديات

الخارجية .

(٣) غرس الروح العلمية:

يجب تدعيم الروح العلمية في مجتمعاتنا العربية لأنها تؤدي دوراً أساسياً في التقدم على كافة المستويات ، والمحافظة على الثقافة القومية من التهميش أمام الثقافات الوافدة. إن أي مجتمع متقدم اقتصادياً لابد وأن يكون متقدماً عالمياً وثقافياً لأن التقدم له وجهان مادي ومعنوي ، ويتمثل الأول في المنجزات الحضارية أما الثاني فيتمثل في النهضة الفكرية والثقافية.

ونحن في المجتمعات العربية بصفة عامة ومجتمعنا المصري بصفة خاصة في أشد الحاجة إلي احترام التعليم ، وإدراك أهميته في تطوير المجتمع وبناء الحضارة أكثر من اهتمامنا بارتفاع متوسط التعليم وزيادة الأعداد الكمية من المتعلمين .

وهذا يتطلب منا إعادة النظر فيما تقدمه مؤسسات الإنتاج الثقافي الفنية والأدبية والفكرية والعلمية وبصفة خاصة المؤسسات التعليمية ، لأن نظم التعليم في بلادنا تقود إلي كراهية الكتاب ، الذي يتخلص منه الفرد بعد انتهاء الامتحان مباشرة ، فضلاً عن الاعتماد على الملخصات والمذكرات وخاصة في المرحلة الجامعية . وهذا يفسر لنا ارتفاع نسبة الأمية والتسرب من التعليم وخاصة في المراحل الأولى (التعليم الأساسي) فضلاً عن الأمية الثقافية لعدد غير قليل من طلاب الجامعة .

إن غرس الروح العلمية هو السبيل لاحترام الكتاب الذي يُعد أساس الثقافة وكما يشير "مصطفى نبيل" فالكتاب هو المحرك للارتقاء على المستوى الشخصي والمستوى العام فيزيد معرفة القارئ بالعصر الذي يعيش فيه ، وهو خزانة الذاكرة الوطنية والحافظ للهوية ، وقدرة المواطن على القراءة والكتابة هي ضمان تحقيق النهضة كما أن القراءة هي الأداة من أجل التعلم الذاتي . *(مصطفى نبيل ، ٢٠٠٣ : ٣١٢)*

إن تطوير العقلية العربية من خلال تطوير مناهج التعليم ، وتقدم البحث العلمي هو السبيل الوحيد للمحافظة على ثقافتنا القائمة ، وصياغة نموذج ثقافي عربي موحد قادر على درء المخاطر الخارجية ، ومواجهة التحديات على كافة المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية .

(٤) تطوير الإعلام:

تغيرت وسائط الاتصال في ظل العولمة ، ولم تعد الأنماط التقليدية **old patterns** المعروفة ذات تأثير ملحوظ ، حتى الوسائط التي تملكها الدولة وتخضع لسيطرتها ، لأن العولمة طورت أساليب وأشكال جديدة للاتصال وللتأثير ارتبطت بالتقدم السريع والملحوظ على مستوى العالم . ***(Mcchesney , ٢٠٠١ : ١٤)***

ومن هنا يجب إعادة النظر في أداء وسائل الإعلام العربية وضبط ما يقدم من خلالها وخاصة ما يعرض على شاشات التليفزيون الذي يحظى بأكبر نسبة مشاهدة في مصر والوطن العربي حيث ارتفاع نسب الأمية ، وانتشار البطالة ووقت الفراغ ، الأمر الذي يجعل من هذا الجهاز وسيلة أساسية لنشر الثقافة .

ولكن هنا تكمن مشكلة تتمثل في جوهر ما يتم عرضه من عناصر الثقافة المحلية وكيفية عرضه ، لأن كثيراً ما تقدم عناصر الثقافة المحلية بصورة باهتة وتفتقد لعناصر الجذب والانبهار وخاصة فيما يتعلق بالكتب والتراث والنواحي العلمية المختلفة ، في الوقت الذي تقدم فيه عناصر الثقافة الخارجية بصورة باهرة وجذابة ، مما يقود إلي المقارنة بين المحلي والوافد التي غالباً ما تنتهي لصالح عناصر الثقافة الغربية والتي تلقى قبولاً واسعاً وخاصة لدى قطاع الشباب والمراهقين .

ويقودنا هذا إلي ضرورة التأكيد على أهمية تطوير الميديا الوطنية لكي تساهم في بناء العقل العربي بصورة صحيحة من ناحية ، ومواجهة الغزو الفكري والثقافي غير المرغوب فيه من ناحية أخرى . والتطوير يعني الاهتمام بتوصيل المعرفة الصادقة والموضوعية المتعلقة بكافة المشاكل والظواهر في عالمنا العربي والعالم الخارجي، وإطلاق العنان لحرية الرأي والتعبير .

ينتهي هذا البحث إلى مجموعة من النتائج هي:

١ . ضرورة الاهتمام بتطوير بنية العقل العربي، والأخذ بآليات التقدم وأسبابه، والتأكيد على أهمية العمل الجاد والإنجاز الكيفي المنافس للإنجازات العالمية على كافة المستويات.

٢ . التأكيد على أهمية الإصلاح بالديمقراطية وترسيخ آليات التفاعل الإيجابي بين القمة والقاعدة داخلياً في كل مجتمعاتنا العربية .

٣ . صياغة نموذج ثقافي عربي مشترك يعكس طموحاتنا وأهدافنا ويضعنا في نفس الوقت في مصاف الدول المتقدمة .

٤ . التفاعل مع الثقافات الخارجية من منطلق المشاركة والندية لأن الثقافة الإنسانية برغم تنوعها إلا أن جوهرها واحد وهو المحافظة على إنسانية الإنسان وكرامته .

٥ . يجب أن نعي حقيقة ما يجب أن نفعله في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة ومن هنا ينبغي مراجعة الذات ونقدها قبل توجيه النقد للآخرين .

وفي النهاية ينبغي التأكيد على أنه لا مجال للخوف من التداخل الثقافي ما دامت قد توفرت لدينا أسباب الصمود والمقاومة ، والثقافة الغربية ليست كلها شر، حتى الثقافة الأمريكية ذاتها فهي ليست كلها موسيقى البوب والروك أند رول والبيتلز والأكلات السريعة ، وليس كل الكتاب توماس فريدمان ، فهناك آرثر ميللر وأيضاً همنجواي ، وهما من أشد المعارضين لثقافة السوق ولنمط الاستغلال والهيمنة .

إن الثقافة الإنسانية التي تدافع عن إنسانية الإنسان لا تعرف التفرقة العنصرية أو الدينية والدليل على ذلك أن من يطلع على إبداعات المفكرين من شتى الدول والثقافات أمثال : تشيكوف الروسي ، وآرثر ميللر الأمريكي ، وطاغور الهندي ، وساراموجا البرتغالي ، وحنا مينا السوري ، وعبدالرحمن منيف السعودي ، ونجيب محفوظ وعباس العقاد وطه حسين ٠٠٠ من المصريين يدرك أن جوهر الثقافة واحد رغم تنوعها فالثقافة الإنسانية

العادلة لا دين لها ولا وطن وإذا كانت لها دين ووطن فهي تتجاوز كل شئ لتلتقي على هدف واحد هو حرية الإنسان وكرامته والدفاع عن حقوقه في أي بقعة من بقاع العالم .

المراجع العربية:

١ . ت . س . إليوت ، ترجمة وتقديم شكري عياد (٢٠٠٣) : ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، الهيئة العامة للكتاب .

٢ . سامي خشبة ، (٢٠٠٤) : نقد الثقافة ، الهيئة العامة للكتاب .

٣ . عبدالعزيز حمودة ، (١٩٩٣) : الحلم الأمريكي ، دار سعاد الصباح طـ (١) .

٤ . عبد المنعم سعيد ، (٢٠٠٤) : مصر دولة متقدمة ، الهيئة العامة للكتاب .

٥ . فتحي عبدالفتاح ، (٢٠٠٣) : الثقافة والعولمة ، الهيئة العامة للكتاب .

٦ . ليسلي سكلير ، تحرير تيمونز روبيرتس ، ترجمة سمير الشيشكلي ، (٢٠٠٤) : الحركات الاجتماعية والرأسمالية العالمية في : من الحداثة إلي العولمة ، الجزء الثاني ، عالم المعرفة .

٧ . مصطفي نبيل ، (٢٠٠٣) : شئ من الفكر ، الهيئة العامة للكتاب .

المراجع الأجنبية:

1-**Gabrielle Banks,** (2003) : **Culture – Trafficking for the** 21st **century . www.globalpolicy.org .**

2-**Golding, p. & Harris, p.(eds),**(1997) **:Beyond Cultural imperialism : Globalization, communication & the New international order .sage : London.**

3-**Jean Tradif,** (2002) **: The Hidden Dimensions of Globalization : What is at stake Geoculturally . www.globalpolicy.org .**

4-**Jeremy seabrook,** (2004): **Localization cultures . www.globalpolicy.org .**

5-**Mark Rico- Oxlex,** (2004) **: in2,٠٠٠ years , will the world Remember Disney or plato . www.globalpolicy.org .**

6-**Mcchesney , R.W,** (2001) **: Global Media Neoliberalism, and imperialism in : Monthly Review vol,** 52**, No.** 10 **.**

7-**Murdock, G.,**(1994) **: The New Mogul Empires : Media concentration and contral in the Age of Divergence in : Media Development . vol XLI** (4) **.**

8-**Phuongly,** (2004) **: A Cultural Connection : Parents` Homelands seek Lasting Link with Thoroughly American Teenagers . www.globalpolicy.org .**

obeikandl.com